المحاضرة الثامنة: مدخل إلى علم الأسلوب.

أولا- منطلقات علم الأسلوب:

يجمع علماء النقد واللغة على أن نشأة علم الأسلوب قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالدرس اللساني الذي أرسى قواعده فاردیناند دو سوسير (1857م- 1913م) مع مطلع القرن العشرين.

إن مجال الدراسة اللغوية عند دوسوسير يحتوي العديد من التنظيرات منها ما عُدّت منطلقات أساسية مهدت لنشأة علم الأسلوب وهي:

أ- التمييز بين الدراسة التاريخية والدراسة التزامنية للغة:

يرى دوسوسير أن اللغة يمكن أن تدرس بمنهجين :المنهج التاريخي (التعاقبي)، والمنهج الوصفي (التزامني)، فالأول يتتبع الظواهر اللغوية وما يحدث لها من تغيير في مراحل زمنية متعاقبة، والثاني يدرس اللغة في مرحلة معينة من الزمان بوصف حالتها الراهنة ولكل دراسة وظائفها المحددة والخاصة بها "فالدراسة التزامنية مثلا لا تسأل إلا عن (ماذا؟ وكيف؟) في بنية اللغة، فتركز على سؤالين مهمين هما (مما تتكوّن؟ وكيف تتكوّن ؟) في الوقت الذي يلاحظ فيه أن السؤال عن (لماذا؟ ومن أين؟) من مسؤولية الدراسة التطورية"، من هنا فإن علم اللغة يتبنى المنهج الآني الاستقرائي، وينظر إلى اللغة على أنها كائن يخضع للتطورات، لذلك لا بد من تحديد زمن معين ولغة معينة وجعلها موضوع الدراسة.

ب-**التمييز بين اللغة والكلام:**

اقترح دوسوسير عددا من التقسيمات لدراسة اللغة دراسة وصفية، تقوم على التمييز بين ثنائيات ضدية تقابل بين :(التزامن والتعاقب)، (الدال والمدلول)، (اللغة والكلام)، "ولعل أهم مبدأ أصولي يستند إليه تحديد حقل الأسلوبية يرتكز أساسا على ثنائية تكاملية... تتمثل في تفكيك مفهوم الظاهرة اللسانية إلى واقعين أو لنقل ظاهرتين وجوديتين :ظاهرة اللغة، وظاهرة العبارة (أو الكلام)" .

وقد عدّ دوسوسير اللغة نظام علامات فقال: "اللغة نظام من الإشارات"، وأن الفصل بينها وبين الكلام يعني "الفصل بين ما هو اجتماعي وما هو فردي، الفصل بين ما هو جوهري وما هو ثانوي وعرضي إلى درجة ما" [1].

من هنا يمكن أن نجمل أهم الفروق بين اللغة والكلام فيما يأتي:

1-اللغة واقعة اجتماعية: أي أنها "مجموعة من العلامات المختزنة في حقل الجماعة، هذه العلامات والقواعد المختزنة في الذهن لا نطق لها، لأن محورها جمعي، وهي تشبه –كما يرى دوسوسير- القاموس الذي توجد فيه الكلمات صامتة غير منطوقة، صالحة للنطق والاستعمال"، وهي بهذا يمكن أن تدرس دراسة علمية، وذلك لإمكانية إخضاع ظواهرها للتصنيفات العلمية، والوصول إلى العلاقات الداخلية لبنيتها أو شفرتها.

2-الكلام إنجاز فردي للغة: بمعنى أنه "نشاط إنساني واقعي، وهو تحقيق فعلي حي لتلك الصورة المختزنة في ذهن الجماعة".

<u>ثانيا- مجال علم الأسلوب:</u>

ومن خلال هذه الفروق بن اللغة والكلام يمكننا تحديد مجال علم الأسلوب، وذلك باعتبار الكلام ظاهرة متشعبة متنافرة، ومجاله

---

[1] - المصدر نفسه : ص 32 .

أرحب وأوسع من مجال اللغة، ولذلك لا يمكن إخضاعه للدراسة العلمية المنهجية، وبذلك تبقى اللغة الموضوع الوحيد للسانيات، و"من هذا التمييز بين اللغة كظاهرة مجردة، توجد ضمنا في كل خطاب بشري، ولا توجد أبدا هيكلا ماديا ملموسا، والكلام باعتباره الظاهرة المجسدة للغة... يمكن تحديد المجال الذي تعمل فيه الأسلوبية، إذ أنها لا يمكن أن تتصل إلا بالكلام، وهو الحيز المادي الملموس الذي يأخذ أشكالا مختلفة قد تكون عبارة، أو خطابا أو رسالة، أو قصيدة شعر".

ولا شك في أن كل مبدع يصل إلى مرحلة النضج، يستطيع أن ينتج تركيبات لا حصر لها، فاللغة بوسعها أن تستعين بعدد محدود من الوسائل لتنتج عددا من الاستعمالات، وهذه الاستعمالات هي التي تركز عليها الأسلوبية في مظهرها الحسي، باعتبار أن الكلام الأدبي مجموعة من الجمل لها وحدتها المميزة، ولها قواعدها، ونحوها، ودلالتها و الأسلوبيون يتعاملون مع الجملة كتعاملهم مع النص بأكمله، لأنها قابلة للوصف على مستوياتها المتعددة من صوتية، وتركيبية، ودلالية:

- **المستوى الصوتي:** يقوم أساسا على إدراك الخصائص الصوتية في اللغة العادية، ثم

ينتقل من ذلك إلى تلك التي تنحرف عن النمط العادي لاستخلاص سماتها التي تؤثر بشكل واضح في الأسلوب.

- **المستوى التركيبي**: أما بالنسبة للتركيب فإن الأسلوبية ترى فيه عنصرا ذا حساسية في

تحديد الخصائص التي تربطه بمبدع معين، لأنها تعطيه من الملامح ما يميزه عن غيره من المبدعين، وذلك يتحقق من خلال رصد حجم الجملة طولا وقصرا، وترتيب أجزائها، ومن خلال رصد الأدوات المساعدة التي يستعين بها المبدع كادوات العطف والجر، وأدوات الشرط والاستثناء، والنفي والاستفهام ...

- **المستوى الدلالي**: إن الأسلوبية في هذا المستوى تتجه إلى الألفاظ باعتبارها ممثلة

لجوهر المعنى، فاختيار المبدع لألفاظه يتم في ضوء تجاوز ألفاظ بعينها تستدعيها هذه المجاورة، أو تستدعيها طبيعة الفكرة.

ويأخذ الاستعمال الاستعاري أهمية خاصة في هذا المجال بما يحويه من قدرة ابتكارية على تجاوز المواضعات المألوفة، إلى خلق مواضعات جديدة، دون اللجوء إلى توارث صور مجازية ربما تكون قد فقدت مجازيتها أو ماتت، فتصبح عديمة الفائدة أسلوبيا[2].

[2] - ينظر: محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، سبق ذكره، ص 206، 207 .

المحاضرة التاسعة : مفهوم علم الأسلوب :

إن الأسلوبية علم يصعب تقعيده أو تقنينه ومن ثمة تعريفه، وسبب ذلك يكمن في تعدد اتجهاتها و تنوع مجالاتها "فهي دراسة للغة، وهي أيضا دراسة للكائن المتحول باللغة، وهي كذلك دراسة للعمل الإبداعي، ودراسة لعملها الذاتي المبدع للعمل الإبداعي".

ومع هذا فإن معظم الدارسين يتفقون على أن الأسلوبية في أبسط معانيها هي :الدراسة العلمية للأسلوب تهدف إلى الكشف عن خصائصه الجمالية، وبنياته الفنية، تتكئ على جملة من الأدوات الإجرائية لرصد الظواهر الأسلوبية التي تؤدي إلى مقصدية ذات حمولة جمالية.

ومن جملة التعريفات التي حاولت أن تضبط مفهوم الأسلوبية ما أتى به عبد السلام المسدي في قوله:"فسواء انطلقنا من الدال اللاتيني وما تولد عنه في مختلف اللغات الفرعية أو انطلقنا من المصطلح الذي استقر ترجمة له في العربية وقفنا على دال مركب جذره "أسلوب" Style ولاحقته "يةique ،وخصائص الأصل تقابل انطلاقا أ بعاد اللاحقة، فالأسلوب –وسنعود إليه – ذو مدلول إنساني

ذاتي، وبالتالي نسبي، واللاحقة تختص –فيما تختص به- بالبعد العلماني العقلي، وبالتالي الموضوعي، ويمكن في كلتا الحالتين تفكيك الدال الاصطلاحي إلى مدلوليه بما يطابق عبارة، علم الأسلوب Science du style لذلك تعرّف الأسلوبية بداهة بالبحث عن الأسس الموضوعية لإرساء علم الأسلوب".

وهذا يعني أن الأسلوب موضوع الأسلوبية، فتعمد إلى دراسة خصائصه الإنسانية (ذاتية) دراسة علمية، بهدف كشف مميزاته الجمالية بطريقة موضوعية .

ويعد تعريف عبد السلام المسدي للأسلوبية ذو بعد لساني ، إلا أن هناك من يعرفها انطلاقا من بعدها الجمالي، على غرار جاكوبسون الذي عرف الأسلوبية "بأنها بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا، وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا"[3].

وهناك من انطلق منطلقا مزدوجا لتحديد مفهوم الأسلوبية، يمتزج فيه المقياس اللساني بالبعد الأدبي الفني "فإذا كانت عملية الإخبار علة الحدث اللساني أساسا فإن غائية الحدث الأدبي تكمن في تجاوز الإبلاغ إلى الإثارة، وتأتي الأسلوبية في هذا المقام لتتحدد بدراسة الخصائص اللغوية التي بها يتحول الخطاب عن سياقه الإخباري إلى وظيفته التأثيرية"

ويرجع سبب تعدد تعريفات الأسلوبية إلى تعدد وجهات نظر علماء الأسلوب، التي أفرزت اتجاهات أسلوبية كثيرة نذكر منها :

1- **<u>الأسلوبية التعبيرية</u>**:

[3] - عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، سبق ذكره، ص 37 .

مؤسسها شارل بالي "الذي اتجه باللسانيات التطبيقية إلى المنحى الأسلوبي من خلال نظريته القائمة على دراسة المحتوى العاطفي، ودراسة القيم التعبيرية التي ينطوي عليها الكلام، مخالفا بذلك الدراسات البلاغية القديمة القائمة على الأنماط والصور التقليدية المتداولة"

يركز هذا المفهوم على الطابع العاطفي للغة، وارتباطه بفكرتي القيمة والتوصيل، إذ أن اللغة تتكون من نظام من أدوات التعبير، التي تستخرج الجانب الفكري من كياننا، كما أن اللغة لا تعبر عن أفكارنا فحسب، بل تعبر أساسا عن عواطفه، وعندما تظهر هذه الوقائع التعبيرية فإن البحث الأسلوبي هو الكفيل بدراسة ملامحها.

وقد اهتم بالي باللغة المشتركة لهذا وضع اللغة المنطوقة – وهي مادة دراسته- في مقابل الاستخدامات العفوية الواعية والموجهة نحو الجمال، بالإضافة إلى تركيز اهتمامه على المضمون الشعوري لأفعال التعبير، والعلاقة بين الشكل والمعنى، والبحث عن "علاقة التفكير بالتعبير، وإبراز الجهد الذي يبذله المتكلم ليوفق بين رغبته في القول، وما يستطيع قوله"

ومن خصائص الأسلوبية التعبيرية:

- أسلوبية التعبير تدرس علاقات الشكل مع التفكير.
- أسلوبية التعبير لا تخرج عن إطار اللغة أو عن الحدث اللساني.
- أسلوبية التعبير أسلوبية للأثر، إذ أنها تتعلق بعلم الدلالة، أو دراسة المعنى.

- تعتد أسلوبية التعبير بالأبنية اللغوية ووظائفها داخل النظام اللغوي.

2-الأسلوبية النفسية:

تأسس هذا الاتجاه على يد الألماني "ليو سبيتزر"، وهو اتجاه يهتم بالممارسة الأدبية والنقدية "يدرس وقائع الكلام، أي الوقائع اللغوية التي تبرز السمات اللسانية الأصلية (الأسلوب) لمخاطب أو مبدع، أو خطاب، أو كتّاب معينين".

وقد وضع "ليو سبيتزر" لمنهجه عدة مبادئ منها :

1- يجب أن ينطلق تحليل النص ونقده من ذاته، وليس من أفكار خارجة عنه.
2- النص الأدبي نوع من النظام الشمسي الكاشف عن فكر المخاطب، لأن مبدأ

التلاحم هو الجذر الروحي لكل تفاصيل العمل الأدبي التي لا تعلل، ولا تفسر إلا به .

3- يجب أن ينطلق الولوج إلى مركز النص من الجزء- والجزء عندهم هو الكلام عند

اللسانيين، والخطاب عند النقاد- لأن العمل الكلي يكون الجزء فيه معللا ومندمجا، وهذا المسلك منهج يسهل الوصول إلى مركز النص وثقله الدلالي بعد الجزء أو الخطاب إن رُصد بعناية يكشف خبايا وسر الفعل الأدبي.

4- تحليل النص ونقده ضرب من التفكيك والتركيب، أي: إعادة البناء والتشكل، لأن

الأجزاء في النص نظام شمسي ينتمي إلى نظام أكثر اتساعا منه – وهذا إشارة إلى أن الجزء أو الخطاب أجزاء من النص- فمجموع الأجزاء أو الخطابات تشكل صورة كاملة للديوان، أو القصة، أو الرواية، وهذا الأعمال الأدبية بدورها تكون نموذجا لأعمال أدبية في بلد واحد، أو في عصر واحد، أو في عصور، لأن فكر المبدع يعكس فكر أمته، أو عصره، أو بلده.

5- السمات البارزة في النص –عندهم- في صورتها النهائية عدول شخصي، لأنه

فعل أسلوبي فردي، أو طريقة خاصة في الكلام تختلف عن الكلام العادي، وهنا يخص التقاطع بين اللسانيات والأسلوبيات، ذلك أن ما هو كلام عند اللسانيات هو السمات البارزة عن الأسلوبيين، وهو الخطاب عند النقاد، لتقاطعهم في صفة الفوضى و الحرية و التمرد على السلطة بالخروج على قوانينها ونظامها.

6- وسيلتهم النقدية المفضلة هي اصطناع الحدس لتحليل النص الأدبي، وهو نوع من

الفرقان الذهني يتشكل نتيجة التجربة والدربة، وتعد الملاحظة الحدسية الأولى "مفتاح التشغيل" العقلي الذي يضعنا على الطريق الصحيح للولوج إلى عالم النص.

3-الأسلوبية البنيوية:

هي امتداد متطور لمذهب "بالي" في الأسلوبية الوصفية، ويرى أصحاب هذا الاتجاه "ريفاتير، وجاكبسون"،"أن مصدر الأسلوب يكمن في اللغة ووظائفها، إنه لا يمكن تعريفه خارج الرسالة"[4]، و أن اللغة نظام ، أي مجموعة من الإشارات تكمن قيمتها في العلاقات المتبادلة فيما بينها، وعلى هذا الأساس لا يمكن لأي عنصر من العناصر الانفصال عن بقية العناصر الأخرى، ذلك في إطار بنية لغوية متكاملة تحكمها علاقات مختلفة تعطي القيمة الأسلوبية داخل النظام.

ومن هنا يكون التحليل الأسلوبي خاضعا لتفسير العمل الفني باعتباره كائنا عضويا شعوريا فهي"تُعنى في تحليل النص الأدبي بعلاقات التكامل والتناقض بين الوحدات اللغوية المكونة للنص، وبالدلالات والإيحاءات التي تنمو بشكل متناغم".

وينطلق التحليل الأسلوبي البنيوي من وحدات بنيوية ذات مردود أسلوبي، وقد أعطى "جاكبسون" نماذج عنها مسلطا الضوء على الهيكل الذي يؤطر الخطاب ووحداته التكوينية.

ولقد أوضح "ميشال ريفاتير" مراحل القراءة الأسلوبية في النصوص، وهي :

-مرحلة الوصف: ويسميها "ريفاتير" مرحلة اكتشاف الظواهر وتعيينها، وتسمح للقارئ بإدراك وجوه الاختلاف بين بنية النص والبنية النموذج القائمة في حسه اللغوي مقام المرجع، فيدرك التجاوزات والمجازات وصنوف الصياغة .

---

[4] - بيير جيرو : الأسلوبية،سبق ذكره، ص 117 .

- مرحلة التأويل والتعبير: وعندها يتمكن القارئ من الغوص في النص والانسياق في أعطافه، وفكه على نحو تترابط فيه الأمور وتتداعى ويفعّل بعضها بعضا.

الأسلوبية الإحصائية:

يعنى هذا الاتجاه بالكم وإحصاء الظواهر اللغوية في النص الأدبي، ويستنبط أحكامه بناء على نتائج هذا الإحصاء، وغالبا ما يقوم تحليل الأسلوب في هذا الاتجاه على أساس محدد، يقول "فوكس" Fucks :"نقيّم الأسلوب كما يأتي في نطاق المجال الرياضي، بتحديده من خلال مجموع المعطيات التي يمكن حصرها كميا في التركيب الشكلي للنص"

وحينما يتم تحديد الأسلوب بأنه تردد الوحدات اللغوية التي يمكن إدراكها شكليا في النص فهذا يعني أنه يمكن إحصاء هذه الوحدات اللغوية وإخضاعها للعمليات الرياضية، إن النسبة بين عدد ورود الكلمة في نص ما والمجموع الكلي يمكن تمثيلها عدديا، وهذا يسهل مقارنتها بالنصوص الأخرى.

ويلجأ الباحث الأسلوبي إلى اعتماد التشخيص الأسلوبي الإحصائي "حين يريد الوصول إلى مؤشرات موضوعية في فحص لغة النصوص الأدبية، وتشخيص أساليب المنشئين، وهذه المؤشرات والمقاييس الموضوعية –في ظننا- وسيلة منهجية يمكن بها استنفاد الدرس الأدبي من ضباب العموم والتهويم، وتخليصه من سلطان الحكام الذاتية التي تفتقد السند والدليل وتستعصى على التحليل، والتعليل، وهذه الوسائل المنضبطة في الدرس العلمي ليست بديلا للذوق، وإن كانت محاولة لعقلنة الذوق، كذلك فإن الفحص اللغوي

الأسلوبي للنص ليس بديلا "ألسنيا" –إن صح التعبير- للنقد الأدبي، بل هو نوع من المقاربة المنهجية للغة والأدب، ذو نفع مزدوج لعلوم اللسان وعلوم النقد، وهو في الوقت نفسه مدخل منهجي لا يمكن لنقاد الأدب الخُلّص أن يشيحوا بوجوههم عنه، وإلا فقدت دراساتهم جانبا كبيرا من منهجيتها وموضوعيتها وجدواها.

ومن بين الباحثين الذين تبنوا المنهج الإحصائي في دراساتهم سيد البحراوي، سعد مصلوح محمد الهادي الطرابلسي .

ومن هذه المفاهيم التي أوردناها عن الأسلوبية، نخلص إلى أنها علم يدرس اللغة ضمن نظام الخطاب، فهي تدرس احتمالات الممارسات اللغوية مميّزة بين تلك التي تحمل أثرا فنيا وجماليا عن غيرها،أو هي مجال من مجالات البحث المعاصر التي تدرس النصوص الأدبية انطلاقا من تفكيك ظواهرها اللغوية والبلاغية باستقراء منهج علمي يهدف إلى إبراز السمات الجمالية بطريقة موضوعية.